بسم الله الرحمن الرحيم

الْعُقُولُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ١٤ جُمَادَىٰ الثَّانِي ١٤٤٧هـ

اتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ؛ فَإِنَّ تَقْوَاهُ أَفْضَلُ مُكْتَسَبٍ، وَطَاعَتَهُ أَعْلَىٰ نَسَبٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَى الْعَبْدِ بَعْدَ نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ نِعْمَةَ الْعَقْلِ، فَهُوَ نِعْمَةٌ يُنْعِمُ اللهُ بِهَا عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ كَرَامَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَقَضَىٰ لَهُ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ فِي مَعَادِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ﴾، وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾، أَيْ: لِذِي الْعَقْلِ وَالنُّهَىٰ، كَمَا أَنَّ الْعَقْلَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ كَنُورِ الْبَصَرِ فِي الْعَيْنِ، يَنْقُصُ وَيَزِيدُ، وَيَذْهَبُ وَيَعُودُ، يُدْرِكُ بِهِ الْمَرْءُ الْأَشْيَاءَ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ مَاهِيَّةِ مَبَانِيهَا، وَصِحَّةِ مَعَانِيهَا، وَيُصِيبُ الرَّأْيَ الصَّوَابَ، وَيُدْرِكُ الْبَيَانَ، وَيَمْتَنِعُ عَمَّا لَا يَجْمُلُ، فَهُوَ فِي سَدَادٍ وَرَشَادٍ وَإِمْدَادٍ. ذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَصْلُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ. وَذَكَرَ ابْنُ مُفْلِحٍ فِي «الْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ» عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا أُخْبِرَ عَنْ أَحَدٍ بِصَلَاحٍ قَالَ: كَيْفَ عَقْلُهُ؟ مَا يَتِمُّ دِينُ امْرِئٍ حَتَّىٰ يَتِمَّ عَقْلُهُ.

عِبَادَ اللهِ: لِلْعَقْلِ أَمَارَاتٌ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، وَصِفَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ، فَأَوَّلُ صِفَاتِ الْعَاقِلِ الْعَقْلُ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ، وَالِاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ أَصْحَابِ النَّارِ عِيَاذًا بِهِ مِنْهَا: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ

نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، فَالْعَاقِلُ لَا يُقَدِّمُ عَقْلَهُ عَلَىٰ النَّقْلِ.

عِبَادَ اللهِ: الْعَاقِلُ لَا يُخْضِعُ الشَّرْعَ تَبَعًا لِرَأْيِهِ، فَلَا يَسْلَمُ إِسْلَامُ الْعَبْدِ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ التَّامِّ لِنُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَالْإِذْعَانِ لَهُمَا، وَالْعَمَلِ بِهِمَا، قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ. وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ»: وَكُلُّ مَنْ لَهُ مَسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ يَعْلَمُ أَنَّ فَسَادَ الْعَالَمِ وَخَرَابَهُ إِنَّمَا نَشَأَ مِنْ تَقْدِيمِ الرَّأْيِ عَلَىٰ الْوَحْيِ، وَالْهَوَىٰ عَلَىٰ الْعَقْلِ، وَمَا اسْتَحْكَمَ هَذَانِ الْأَصْلَانِ الْفَاسِدَانِ فِي قَلْبٍ إِلَّا اسْتَحْكَمَ هَلَاكُهُ، وَفِي أُمَّةٍ إِلَّا فَسَدَ أَمْرُهَا أَتَمَّ فَسَادٍ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! كَمْ نُفِيَ بِهَذِهِ الْآرَاءِ مِنْ حَقٍّ، وَأُثْبِتَ بِهَا مِنْ بَاطِلٍ، وَأُمِيتَ بِهَا مِنْ هُدًىٰ، وَأُحْيِيَ بِهَا مِنْ ضَلَالَةٍ؟ وَكَمْ هُدِمَ بِهَا مِنْ مَعْقِلِ الْإِيمَانِ، وَعُمِّرَ بِهَا مِنْ دِينِ الشَّيْطَانِ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْعَاقِلُ يَتَأَمَّلُ فِي مُلْكِ اللهِ وَمَلَكُوتِهِ، وَيَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ وَدَلَائِلَ قُدْرَتِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: الْعَاقِلُ لَا يُؤْثِرُ اللَّذَّةَ الْعَاجِلَةَ، وَلَا يُقَدِّمُ الْمُتْعَةَ الزَّائِلَةَ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا ظِلُّ غَمَامٍ، وَحُلُمُ مَنَامٍ، لَا تُبْقِي عَلَىٰ حَالَةٍ، وَلَا تَخْلُو مِنِ اسْتِحَالَةٍ، السُّكُونُ فِيهَا خَطَرٌ، وَالثِّقَةُ بِهَا غَرَرٌ، وَالْإِخْلَادُ إِلَيْهَا مُحَالٌ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهَا ضَلَالٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. كَمَا مِنْ صِفَاتِ الْعَاقِلِ حُسْنُ السَّمْتِ، وَطُولُ الصَّمْتِ، وَعَدَمُ الِابْتِدَاءِ بِالْكَلَامِ إِلَّا حِينَ السُّؤَالِ، وَعَدَمُ الْجَوَابِ إِلَّا عِنْدَ التَّثَبُّتِ. وَالْعَاقِلُ لَا

يَسْتَحْقِرُ أَحَدًا، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ عَيْبُ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ عَيْبُهُ خَفِيَتْ عَلَيْهِ مَحَاسِنُ غَيْرِهِ.

وَالْعَاقِلُ إِذَا عَلِمَ عَمِلَ، وَإِذَا عَمِلَ تَوَاضَعَ، وَإِذَا نَظَرَ اعْتَبَرَ، وَإِذَا صَمَتَ تَفَكَّرَ، وَإِذَا تَكَلَّمَ ذَكَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْهِ حَلُمَ، وَإِذَا سُئِلَ بَذَلَ، وَإِذَا نَطَقَ صَدَقَ ، لَافِتًا إِلَىٰ أَنَّ الْعَقْلَ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ كُبْرَىٰ، وَمِنْحَةٌ عُظْمَىٰ، حَقِيقَةٌ بِشُكْرِ اللهِ وَحَمْدِهِ، وَمِنْ شُكْرِهِ سُبْحَانَهُ حِفْظُهُ مِمَّا يُكَدِّرُ صَفْوَهُ وَصَفَاءَهُ، وَيُعَكِّرُ نُورَهُ وَنَقَاءَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ الْهَوَىٰ، فَهُوَ لِلْعَقْلِ مُضَادٌّ، وَلِلْخَيْرِ صَادٌّ، وَهُوَ مَرْكِبٌ ذَمِيمٌ يَسِيرُ بِالْإِنْسَانِ إِلَىٰ ظُلُمَاتِ الْفِتَنِ، وَمَرْتَعٌ وَخِيمٌ يُقْعِدُهُ فِي مَوَاطِنِ الْمِحَنِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْعَقْلُ عَقْلَانِ: عَقْلُ إِدْرَاكٍ وَعَقْلُ رُشْدٍ، فَالْمُسْلِمُ عِنْدَهُ عَقْلُ الرُّشْدِ وَعَقْلُ الْإِدْرَاكِ، وَغَيْرُهُ عِنْدَهُ عَقْلُ الْإِدْرَاكِ فَقَطْ، فَهُوَ يُدْرِكُ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُ، وَقَدْ يَكُونُ ذَكِيًّا سَرِيعَ الْبَدِيهَةِ وَالْفَهْمِ، وَلَكِنْ لَا يُوجَدُ لَدَيْهِ عَقْلُ رُشْدٍ يَدُلُّهُ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ، وَقَدْ نَفَىٰ اللهُ عَنِ الْكُفَّارِ هَذَا الْعَقْلَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ :﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ عُرِفَ بِالْعَقْلِ كُلِّفَ بِالْمَهَامِّ الْمُهِمَّةِ وَالصَّعْبَةِ، وَلَعَلَّنَا نَأْخُذُ أَمْثِلَةً عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ خَيْرِ مَنْ رَأَتِ الْأَرْضُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ:

عِنْدَمَا عَزَمَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَىٰ جَمْعِ الْقُرْآنِ مُوَافَقَةً لِرَأْيِ الْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَرْسَلَ إِلَىٰ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا عِنْدَ الْبُخَارِيِّ، وَقَالَ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلَا نَتَّهِمُكَ،

كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ، [أَيْ: حَاذِقٌ فَطِنٌ]، لَقِنٌ [أَيْ: سَرِيعُ الْفَهْمِ]، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ [أَيْ: يَخْرُجُ بِسَحَرٍ إِلَىٰ مَكَّةَ]، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ؟» قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟»، قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ».

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: هَلُمَّ يَا فُلاَنُ، فَلْنَطْلُبِ الْعِلْمَ، فَإِنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْيَاءٌ. قَالَ: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، تَرَىٰ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ فِيهِمْ؟ قَالَ: فَتَرَكْتُ ذَاكَ وَأَقْبَلْتُ أَطْلُبُ، إِنْ كَانَ الْحَدِيثُ لَيَبْلُغُنِي عَنِ الرَّجُلِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَدْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَآتِيهِ فَأَجْلِسُ بِبَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَىٰ وَجْهِي فَيَخْرُجُ إِلَيَّ فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جَاءَ بِكَ؟ مَا حَاجَتُكَ؟ فَأَقُولُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي تَرْوِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَقُولُ: أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ؟ فَأَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ، قَالَ: فَبَقِيَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، حَتَّىٰ أَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَيَّ، فَقَالَ: هَذَا الْفَتَىٰ كَانَ أَعْقَلَ مِنِّي.